

قداس الشعانين

صباح الأحد ١٦ نيسان ٢٠٠٦ ترأس سيادة متروبوليت بيروت وتوابعها المطران الياس عوده قداس الشعانين في كاتدرائية القديس جاورجيوس بحضور حشد كبير من المؤمنين وأطفالهم.

بعد قراءة الإنجيل المقدس ألقى سيادته العظة التالية:

«باسم الآب والإبن والروح القدس الإله الواحد آمين.

البارحة عيّدنا لقيامة لعازر واليوم نعيّد لدخول الرب إلى المدينة المقدسة أورشليم. أمس أظهر الرب يسوع علانية أنه غالب الموت والجحيم ومنهض لعازر من القبر، وهو سيد الحياة ومصدرها. رأيناها يتعاطف معنا في سؤاله «أين وضعتموه» (يو ١١: ٣٤) ويكي مدفوعاً بمحبته لصديقه لعازر. رأينا إنسانيته واتحاده بنا. أراد أن يعزينا قائلاً انه «القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥) وربّ الخليقة بأسرها. رأيناه يقيم لعازر من الموت بعد أربعة أيام على دفنه. أما اليوم فنعيّد لمَلِكِ السماء والأرض الذي دخل إلى المدينة المقدسة ليظهر محبته التامة للإنسان. الراكب على السحاب، الراكب على ظهور الشاروبيم كإله، يدخل أورشليم على جحش آتياً إلى الذبح بإرادته، لكي يموت من أجلنا مصلوباً، وكان ملعوناً كلُّ معلق على خشبة. دخل المدينة ليقبل كل لعنة عنا وليجعل من الصليب (الذي كان لليهود لعنة) بركةً للعالم، لأن الرب عليه أظهر حبه العظيم للإنسان.

لعازر وأختاه أرادوا أن يقيموا للرب يسوع عشاء ربما ليشكروه وليعبّروا له عن امتنانهم العميق على إقامته لعازر من الموت. اتى يسوع «وكانت مرتا تخدم وكان لعازر أحد المتكئين معه. أما مريم فأخذت رطل طيب من ناردين خالص كثير الثمن ودهنت قدمي يسوع ومسحت قدميه بشعرها» (يو ١٢: ٣-٢).

كان الناردین عطراً طيب الرائحة يُستورد من جبال الهند، لذا كان غالي الثمن. وكان ثمن المقدار الذي سكبته مريم على قدمي يسوع يعادل أجر عام كامل. سكبّت مريم هذه الكمية على قدمي يسوع وكأني بها تقول: هذا ما استطعت بكل ما لدي أن أشتريه لأسكبه على قدميك، وأنا عاجزة، مهما فعلت، عن شكرك على محبتك. الإنسان لا يستطيع أن يفي الله على كل الإحسان الذي يفعله له. هذا ما أرادت مريم التعبير عنه: مهما قدّمتُ لك، وأنا لا أريد أن أقدم لك إلا ما هو طيب وصالح وثمرين، لا يساوي محبتك لنا.

كذلك فإن الناردین طيبٌ يُستخدم في مسح الملوك. ولعل مريم مسحت الرب يسوع به باعتباره مليكها، المسيح المخلص. يقول الإنجيلي يوحنا أن «مريم دهنت قدمي يسوع». والعادة كانت أن العبد هو من يمسح الرجلين. بعملها هذا كأني بمريم

مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

تريد أن تقول ليسوع انها لا تستحق أن تمسح قدميه، ما يذكّرنا بقول يوحنا السابق عن المسيح: «لستُ بمستحق أن أحلّ سيور حذائه» (يو ١: ٢٧). أما مريم فقد أتت إلى يسوع وسكبت الطيب على قدميه وحلّت شعرها ومسحت به قدمي يسوع. والشعر المحلول كان قديماً علامة على سوء السيرة. لكن مريم أرادت أن تقول ليسوع أنت الذي قلت عني اني جالسة عند قدميك اسمع كلامك، وهذا هو العمل الأفضل، أبقى أمامك خاطئة كالمحلولة الشعر. أنا خاطئة أمامك يا رب. ليس من إنسان بلا خطيئة، حتى من يظن أو يُقال عنه انه يفعل الأعمال الحسنة.

مسحت مريم الطيب بشعرها، و«امتلاً البيت من رائحة الطيب»، كما امتلاً من تواضع مريم وانسحاقها ووداعتها وكل ما وصفه بولس الرسول في رسالته: الحق والعفاف والعدل والطهارة والصيت الحسن والفضيلة. كل هذه لا تفوح رائحتها في البيت وحسب بل في الحارة والبلدة والمدينة والعالم. الأعمال الصالحة كالقنديل المضاء الذي يشع نوره.

عندما قامت مريم بهذا العمل الحسن قال أحد تلاميذه، يهوذا بن سمعان الاسخريوطي، الذي كان مزماً أن يسلمه: «لمَ لم يُبع هذا الطيب بثلاث مئة دينار ويُعطى للمساكين؟». أهل الشرّ لديهم دائماً أعداؤهم وينتقدون أهل الخير. «الآدمي» ديّان لغير الآدمي حتى وإن لم يتكلّم. أعماله الصالحة تدين الآخرين، لذا يحاولون الانتقاص منه ومن أعماله.

تساءل يهوذا لِمَ لا يُصرف ثمن الطيب على الفقراء؟ ويقول الإنجيلي: «وإنما قال هذا لا اهتماماً منه بالمساكين بل لأنه كان سارقاً وكان الصندوق عنده وكان يحمل ما يُلقى فيه» (يو ١٢: ٦). صورة يهوذا تدلّنا على محبة المسيح الفائقة. كان يهوذا أحد التلاميذ، وكان «أمين الصندوق»، أي كان يحمل المال الخاص بالجماعة، بأمر يسوع طبعاً. أوّظن أن يسوع لم يكن يعرف انه سارق؟ بالطبع كان يعرف، لكنه أراد أن يقول ليهوذا حتى أنت أيها السارق أحبك وأبغى خلاصك. أحبّ يسوع يهوذا ووثق به علّ المحبة والثقة ترجعانه عن شرّه وخطيئته. أراد الرب أن يعلم يهوذا ويعلمنا أنّ في قلبه مكاناً لكل إنسان، وأنّ محبته تشمل الكل. «في بيت أبي منازل كثيرة» (يو ١٤: ٢) ومن أراد أن يأتي إليّ يجد مكاناً وراحة.

مريم، المرأة الجالسة عند قدمي يسوع تسمع كلامه، تحلّ شعرها لتقول له إنني خاطئة. والخاطئي السارق، عوض الاعتراف بخطاياها والتوبة، راح يوزع انتقاداته. هذا الإنسان الذي رافق يسوع وكان أحد الإثني عشر لم يفهم عمق محبة يسوع. من يتبغي الالتصاق بيسوع عليه أن يكون بريئاً كالأطفال، مستعداً لاقتبال كل ما يُقدّم له.

مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

عليه أن يفتح أبواب قلبه للمسيح، بعد أن يُفرغ هذا القلب من كل اهتمام دنيوي، ومن كل المخاطر التي تحيق به.

يهودا استخدم عبارة تفيض بالتقوى «لَمْ لَمْ يُبِعْ هَذَا الطيب... وبعطاً للمساكين» ليخفي دوافعه الحقيقية، أما الرب يسوع فعارفاً بما في قلبه لكنه أعطاه فرصة للخلاص. المهم أن يعرف المسيح كم هو مستعدّ قلبك أن يعطني. «يا ابني أعطني قلبك» (أمثال ٢٣: ٢٦). المهم أن نقدّم نحن له قلوبنا.

الرب دخل أورشليم كمليك لكنه لم يدخل على فرس أو حصان ولا في مواكب وضجيج. دخل راكباً على جحش بن أتان لكي يظهر للناس أن مُلكَ الله يتصف بالتواضع والوداعة لا بالقوة والسلطة والبطش. خلال الصوم الأربعيني المقدس كنا نردّد كل يوم صلاة القديس أفرام السرياني: «أيها الرب وسيد حياتي، أعتقني من روح البطالة والفضول وحب الرئاسة والكلام البطال...». عندما كان يسوع يجترح العجائب، كانت الجموع تتبعه لتنصبه مَلِكاً لكنه كان يهرب منهم إلى الجبال. اليوم، بدخوله إلى أورشليم، يظهر الرب يسوع نفسه مَلِكاً إنما مختلفاً عن سائر الملوك، مَلِكاً يدخل أورشليم لا لاستغلال شعبه أو استعماله لمآربه بل لافتدائه، مَلِكاً لا يبطش بشعبه ويؤذيه بل مَلِكاً أتياً ليُصلب من أجل شعبه، مَلِكاً يجب أن يتشبه به كل ذي سلطة أو مسؤولية أو مُلك أو رئاسة ويتعلّم أن تكون عيناه على شعبه لا على منصبه. يسوع يعلم كل مسؤول انه خادمٌ لشعبه: جئت لأخدم لا لأخدم.

يسوع دخل إلى أورشليم وهو عالمٌ انه سيموت لذا قال عن مريم: «أتركوها إنها ليوم تكفيني قد حفظته» (يوحنا ١٢: ٧). والطيبُ كان يُدهن به الميت، الجموع كانت تحمل السعف والأغصان وتحييه مَلِكاً لها، والأصوات كانت تخرج من أفواه الأطفال والرُضع «أوصناً، مباركٌ الآتي باسم الرب، ملكٌ إسرائيل» (يو ١٢: ١٣) بحسب النبوءة التي تقول «لا تخافي يا ابنة صهيون هوذا مَلِكُك يأتي جالساً على جحش أتان» (زكريا ٩: ٩).

الإنجيليون يظهرون أن أفعال الرب يسوع قد تَمّت أقوال الأنبياء، وقد أظهر يسوع أنه في الحقيقة المسيح المخلص وأنه جاء بتواضع، راكباً على حمار وضيع، ليحلّ السلام في العالم، والذين تبعوه كانوا يصرخون «أوصناً، مباركٌ الآتي باسم الرب. مباركةٌ مملكة أبنينا داود الآتية باسم الرب. أوصناً في الأعالي» (مرقس ١١: ٩-١٠). الأبرياء وجدوا فيه مَلِكاً أما اليهود والفريسيون، عندما وجدوا الشعب يلتف حوله ويتبعه، فقد بدأوا يخططون لموته لأنه كان يشكّل خطراً عليهم.

في هذا العيد يعلمنا الرب التواضع والوداعة والمحبة والاعتراف بالله كما فعلت مريم. ويقول لي ولكم ولكل خاطئ كما قال ليهودا أنت مقبول لديّ ومحبوب. كما يعلمنا أن من رفع نفسه اتضع ومن وضع نفسه ارتفع.

مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

مَلِكُ الكون، ربُّ السماء والأرض، أتى على جحش ابن أتان ليُظهر أن المحبة هي التي تنتصر في النهاية، المحبة التي تضحّي بذاتها حتى الموت.
ألا جعلنا الرب كالأطفال ساعين وراء يسوع، مقدّمين له عوض السَعَف محبةً وصلاة من صميم القلب، مع أغصان الفضائل، هاتفين نحوه أنه مَلِكُنَا ومخلّصنا وسيد حياتنا.

ألا جعل الأيام الآتية علينا أيام بَرَكة فيها ندخل في سرّ آلامه. المحبة التي لا تحمل في طياتها ألمًا هي محبة زائفة، لأن المحبة تعطي من ذاتها، والرب أعطى نفسه من أجلنا. لنستعد جميعنا لاستقبال المسيح بأغصان أفعال الصلاح، حاملين سَعَف الطهارة والفضائل، لنستقبل يوم القيامة فرحين ومهلّلين المسيح قام. آمين.»